

إعداد: طارق العبد

كاتب و صحفي سوري

### لمن السيطرة في الغوطة .



خلال السنة الأخيرة تغيرت خارطة العسكرية للغوطة الشرقية فبعد سلسلة كتائب متفرقة انسحب تدريجياً مفهوم الجيش الحر لصالح مجموعات أكثر تنظيماً. فتشكلت القيادة الموحدة التي تضم جيش الإسلام واتحاد أجناد الشام وفيلق الرحمن فيما يطبق الجيش السوري الحصار من خلال ثلاث نقاط أساسية هي إدارة المركبات والاستخبارات الجوية في حرستا والدفاع الجوي في مدخل المليحة . غير أن الساحة الداخلية في الغوطة تبدو تحت حكم رجل واحد هو زهران علوش الذي يطرح نفسه كزعيم حرب يذكر بأمراء الحرب أيام لبنان في الثمانينات فالرجل يحيط نفسه بهالة وماكنة إعلامية تعمل على تسويقه في الغوطة وفي مختلف المناطق الخاضعة لسيطرة الفصائل المسلحة في البلاد يضاف إلى ذلك فكرة انه الوحيد الذي لم ينقطع عنه الدعم السعودي بديل استمراره بدفع رواتب مقاتليه اللذين يتزايد عددهم بالإضافة إلى سيطرته على عشرات مستودعات الأغذية وعلاقته الإيجابية بالتجار الذين يتمكنون من إدخال البضائع إلى الغوطة ثم بيعها بأسعار عالية .

وابعد من ذلك فهو يمتلك سجناً يدعى سجن التوبة يقوم من خلاله باعتقال كل من يخالفه الرأي ومن الواضح انه سجن سيئ الصيت لدرجة أن عناصر جيش الأمة الذين استهدفهم مؤخراً قد فضلوا تسليم انفسهم لحاجز الجيش النظامي عند معبر مخيم الوافدين بدل البقاء أو الاعتقال في التوبة .

ولكن ماذا عن باقي الفصائل ؟ في المجمل تعيش هذه المجموعات مثل الأجناد وفيلق الرحمن وضعاً سيئاً فتمويلها القطري يبدو اضعف من جيش الإسلام وذلك لقرار قطري سابق بتقليل دعم المجموعات المسلحة بعد سلسلة ضغوط دولية وبعد فشل هذه الفصائل في إحداث خرق ميداني لافت وخاصة بعد معركة العنينة في نيسان 2013 والتي تكررت في تشرين الثاني من السنة ذاتها

على مساحات شاسعة في محيط العاصمة تقع الغوطة الشرقية التي تشكل بوابة الاقتصاد لدمشق وخاصة على الصعيدين الزراعي والصناعي قبل أن تعصف الأحداث بالبلاد فتتحول إلى منطقة محاصرة يتقاتل فيها المسلحون من مختلف الفصائل المقاتلة في سوريا .

### من السلمية إلى العمل المسلح فالحصار

تشكل مدن وبلدات دوما - حرستا - عربين - كفر بطنا - سقبا - حمورية وزملاكا اهم النقاط الرئيسية في الريف الدمشقي لجهة الغوطة الشرقية هناك حيث قرر العديد من سكان العاصمة الانتقال للسكن بسبب رخص أسعار العقارات وإمكانية بدء مشاريع زراعية أو صناعية أو تجارية في تلك المنطقة فتحوّلت إلى شريان اقتصادي هام لدمشق قبل أن تندلع الاحتجاجات الشعبية في آذار سنة 2011 حيث خرجت هذه البلدات في مظاهرات تعاملت معها السلطة بحلول أمنية وسلسلة اعتقالات طالت الكثير من المدنيين ولكنها بقيت تحت سيطرة الدولة إلى أن بدأ مفهوم " الجيش الحر " يتشكل فقرر عدد من العسكريين الانشقاق كما تشجع عدد من المدنيين على حمل السلاح وتشكيل كتائب متفرقة كانت تشن بعض العمليات بين الحين والآخر حتى خريف سنة 2012 حين تمكنت هذه المجموعات من السيطرة على الغوطة الشرقية بالتزامن مع موجات نزوح إلى العاصمة بفعل الاقتتال المستمر بين الطرفين على أن هذه الفترة قد تميزت بتنظيم أوسع لكتائب الجيش الحر حيث برز اسم لواء الإسلام ككيان عسكري منظم يقوده زهران علوش في دوما التي ظهر فيها أيضا لواء شباب الهدى ثم كل من ألوية الحبيب المصطفى وأحفاد الرسول وصولاً إلى جبهة النصر التي تبنت لأول مرة عملية انتحارية استهدفت مبنى الاستخبارات الجوية في حرستا في تشرين الأول من سنة 2012 لتفرض القوات النظامية طوقاً على الغوطة وتبدأ بشكل تدريجي حصاراً على المنطقة وصل ذروته مع تموز سنة 2013 حين أغلقت جميع المداخل وتم قطع المياه والكهرباء وليستمر الحال على ما هو عليه حتى اليوم .

ورغم أن السيطرة على الأرض ما زالت لهذه الكتائب إلا أنها تتعرض بشكل مستمر لقصف بالطيران الحربي للجيش بالإضافة إلى تمكنه من استعادة السيطرة على بلدة المليحة في مدخل الغوطة على طريق مطار دمشق الدولي في صيف سنة 2014 بينما تمكن تنظيم داعش من التمدد في عدد من البلدات مثل ميدعا ومسرابا .

مسألة أخرى لا تقل أهمية عن الأسباب السابقة وهي خطر التهجير إذ ينظر أهالي الغوطة إلى الأمر على أنه محاولة لنفيهم خارج منطقتهم بعد أن يقرر المسلحون وعائلاتهم وهم في الغالب من الريف الدمشقي المغادرة إلى مناطق أخرى في حال عدم قبول

التسوية ما يعني إشكالية في التركيبة السكانية كذلك فإن التجارب السابقة في المصالحات لم تفض إلى نتيجة إيجابية في عدد من البنود مثل إطلاق سراح المعتقلين أو تحديد مصير المخطوفين بل على العكس فقد زادت معدلات الاعتقالات عند مداخل كل من برزة والمعضمية .



ومع كل هذا تؤكد بعض المعلومات أن وفوداً من داخل الغوطة قد اتجهت إلى دمشق والتقت بوزارة المصالحة الوطنية لبحث إمكانية مثل هذه التسوية حيث من الوارد أن يكون الوفد قد غادر بموافقة ضمنية من زهران علوش الذي يواجهه وبالإضافة لخطر تقدم الجيش السوري خطراً ثلاثياً من كل من تنظيم داعش والفصائل المقاتلة والمدنيين انفسهم .

ختاماً تبدو الغوطة الشرقية على مفترق طرق في ظل تشديد الحصار من جهة وضيق أحوال المدنيين من جهة أخرى في وقت يبدو الحسم العسكري فيه خياراً متوقفاً بشكل دائم .

ولعل هذا السبب هو ما دفعها للرضوخ لقيادة زهران الذي لن يتردد في تصفية أي منها في حال رفعت الصوت ضده .

هل يصلح نموذج حمص القديمة للغوطة ؟



يكثُر الحديث في الآونة الأخيرة عن إمكانية تطبيق تسوية في الغوطة على غرار تلك التي حدثت في حمص القديمة لجهة تسليم المسلحين أسلحتهم وتسوية أوضاعهم ومن ثم دخول مؤسسات الدولة وإعادة الخدمات للمنطقة ولعل ملامح مثل هذه التسوية قد بدأت مع تمكن ما يزيد على ألفي شخص من المدنيين من الخروج

من الغوطة إلى مراكز للإيواء في دمشق وهو ما حصل في حمص قبل أشهر من بدء تطبيق الاتفاقية التي أشرفت عليها ممثلة الأمم المتحدة في سوريا .

ومع ذلك فثمة عوائق كثيرة تقف في وجه انسحاب التسوية الحمصية على ريف دمشق أولها أن الوضع الإنساني لا يمكن مقارنته بحمص فالغوطة التي تضم حالياً ما يزيد على نصف مليون شخص مازال الوضع المعيشي على سوءه أفضل من حمص أو حتى جنوب العاصمة في ببيلا ومخيم اليرموك يضاف إلى ذلك أن قرار المسلحين وقياداتهم مازال يرفض مثل هذا الإجراء بل وسبق أن أعلن زهران علوش في غير مناسبة رفضه وتخوينه لمن يقوم بذلك مصمماً على الخيار العسكري وهو ما ينسحب على باقي المجموعات المسلحة مع مفارقة أن بعض هذه الكتل الممتدة إلى برزة والقابون بمدخل دمشق الشرقي قد قبلت في وقت سابق بالتسوية وإن بشكل غير مباشر بمعنى أن مسلحيها بقوا في المنطقة ولم يخرجوا لتسوية أوضاعهم ولم يتعرض لهم في المقابل أي طرف آخر .